محنة الإمام الطبري

مع الحنابلة

محمد تبركان

مِحنَةُ الإِمامِ الطَّبرِيّ مَعَ الحَنابِلَة

محمد تبركان

بسم الله الرحمن الرحيم

مِحنَةُ الإمامِ الطَّبريّ معَ الحَنابِلَة [1]

كانَ المذهبُ الحنبليُّ المذهبَ السّائدَ بأرضِ العِراق خِلال القَرنين الثّالث والرّابع الهِجريَّيْن، وذلك بفَضل صُمود الإمام أحمدَ بن حنبل - رحمه الله - في مِحنَةِ خلقِ القرآنِ، هذا الصُّمودُ أعلى مِن شأنِ الحَنابلَة، ورفعَ قَدرَهم في أَعيُنِ النّاس والعامّة؛ فأقبَلوا على تَعلُّم العلم وَفقًا لمذهبِ أحمد، حتّى أصبحَ الحَنابلةُ أغلبيّةً بأرضِ العراق، وكان رأسُ الحنابلَة بالعراق الإمامُ أبوبكر محمّد بن الحافظ أبي داود صاحبِ السُّنَن، الّذي كانت بينَه وبين الإمام ابنِ جَريرٍ الطّبريّ مُشاحَناتٌ وخِلافاتٌ[2]، وكان كِلاهما لا يُنصِفُ الآخَر، ووقعَ بينهما ما يقعُ عادةً بين الأقْران في كلّ عَصرٍ ومِصر.

ولو وقفَ الخِلافُ بين الرّجلين عند هذا الحَدّ لَكانَ الأمرُ هَيّنًا ويَسيرًا، لِتَوافُر أمثالِ هذه الخِلافات في مختلف العصور، ولكنّ الخِلافَ بينهما أخذَ مَنحنًى جديدًا، إلى أنْ تَحوّلَ إلى مِحنَةٍ كبيرةٍ على الإمام ابنِ جَرير الطّبريّ؛ ذلك أنّ الحنابلَةَ حزبَ أبي بكر بن أبي داود دفعَهم التَّعصُّبُ المذهبيّ لِأن يُشَنّعُوا على ابنِ جَرير، ويُشيعُوا عنه الأكاذيبَ والأباطيلَ الّتي هو منها بَراءٌ، بل إنّه مِن أبعدِ النّاس عمّا اتّهَمُوه به. فقد أشاعُوا عليه أنّه مِن الرَّوافِض، فرَمَوْه بالتَّشَيُّع والإماميَّة، وشَغَبُوا عليه بشِدَّة؛ فصَدَّقَهم كثيرٌ مِمَّن لا عقولَ لهم من العوامّ، وبعض الخاصّة.

ويُعزَى رَواجُ هذه الشَّناعات، وذُيوعُها إلى أسبابٍ عِدَّة، لعلّ أهمَّها:

الأمر الأوّل: أنّ ابنَ جَريرٍ الطّبريّ صحَّحَ حديثَ (غَدير خُمّ)، بعدَما جمعَ طُرُقَه في أربعة أَجزاء باهِرَة، تَدلُّ على سَعَة علمِه ومَرويّاته، ونصُّ حديث الغَدير: (مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ، فَعَلِيٌّ

---

1 - أصول الدّين عند الإمام الطّبريّ (ص23 – 33 المبحث الثّاني/مِحنَتُه مع الحَنابلة)، الإمام ابن جرير الطّبريّ للزّهيريّ.

2 - وتأثّرَ الحنابلةُ أيضًا باتّهامات أبي سليمان داود بن عليّ الظاهريّ، و ابنِه محمّد.

مَوْلَاهُ ...). وهو يُعَدُّ العمدَةَ عند جميعِ طَوائفِ الشِّيعة، وبه يَستدِلُّون على أَحَقِّيَّةِ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في الخِلافَة. والحَقُّ أنّ تَأويلَه لا يستقيمُ بالكُلِّيَّة وما ذهبَ إليه الشِّيعةُ الرَّوافِضُ.

وإنّما جمعَ ابنُ جرير الطّبريّ طُرُقَ هذا الحديث لمّا بلغَه أنّ الإمامَ أبا بكر بنَ أبي داود، وغيرَه من علماء الحَنابلَة أذاعُوا في النّاس أنّ الحديثَ ضعيفٌ لا يثبُتُ؛ فما كان من الإمام الطّبريّ إلّا أن قامَ بواجب البيان، نُصْحًا منه للمسلمين، وإبراءً للذِّمَّة، وأداءً للأمانة العلميّة، وليس – كما زعموا - مَيْلًا منه للرَّفض، ولا تأثُّرًا بمذهب التَّشَيُّع. على أنّ الإمامَ أبا بكر بن أبي داود أَقَرَّ بعدُ بصِحَّة حديثِ الغَدير.

الأمر الثّاني، والّذي كان سببًا لتَصديق كثيرٍ مِن البُسَطاء والعامّة لِفِرية تَشَيُّع الطّبريّ يرجعُ إلى وجود عالِم مِن علماء الشِّيعة الإماميّة يشتركُ مع الإمام محمّد بن جرير الطّبريّ السُّنّيّ في: الاسم (محمّد بن جرير)، والكُنيَة (أبو جعفر)، والنِّسبة (الطّبريّ).

وأعني به: أبا جعفرٍ محمّد بنَ جرير بن رُستُم الطّبريّ الرّافِضيّ، له مصنَّفَاتٌ كثيرةٌ في ضَلالات التَّشَيُّع، مثلَ كتاب "المُسترشِد في الإمامة" و "الرّواة عن أهل البيت".

وقد أدَّى هذا الاشتباهُ العَجيبُ إلى وقوع اللَّبْس، والخَلط بين الرّجلين. لكن، شَتّان ما هما.

ولقد أحسنَ الإمامُ الذّهبيُّ رحمه الله غايةَ الإحسان حين أتبعَ ترجمةَ الإمامِ ابنِ جريرٍ الطّبريّ السُّنّيّ بترجمةِ الطّبريّ الرّافِضيّ؛ رغبةً منه في التّمييز بين الرّجلين، ولِيقطَعَ سبيلَ الاشتباه في أمرِهما.

الأمر الثّالث: موقفُ ابن جَرير الطّبريّ من الإمام أحمد بن حنبل، وانتقادُه بعضَ آرائه، بل الغمزُ مِن مَكانتِه الفِقهيَّة - على ما قيل -. وتَجلّى ذلك حين قام الإمام الطّبريّ بتَأليف كتابٍ ضَخمٍ في اختلاف الفقهاء، فلم يَذكر فيه الإمامَ أحمدَ بنَ حنبلٍ؛ على اعتبار أنّه مِن

كبار المُحدِّثين؛ فظنَّ الحَنابلةُ أنّ الطّبريَّ قد تَعمَّدَ ذلك للتَّقليل مِن شَأن فقهِ الحَنابلة، فاستجلَبَ بذلك لِنفسِه عداوةَ علماء الحَنابِلَة الّذين تَعَصَّبُوا عليه، ووَقعُوا فيه، وتَبعَهم على ذلك عَوامُّهم من الغَوغاء والدّهماء، الّذين ما فَتِئُوا يَشْغَبُونَ عليه، ويُطلِقُونَ في حَقِّه العَظائمَ والفَظائعَ. ولعلّ هذا الأمرَ كان السّببَ الرّئيسَ في مِحنَةِ الطّبريّ، واضطهاد الحَنابلة له.

هذه الأمورُ وغيرُها، جعلَتْ فصولَ المِحنَة تَستحكِمُ، وتَضيقُ حَلقاتُها على الإمام الطّبريّ؛ فبعدَ هَجمةٍ شرِسَةٍ من الشَّناعات والأَباطيل والأَكاذيب بحَقّ هذا العالِم الجَليل قامَ الحَنابلةُ بالتَّشْويش على الطّبريّ في مَجالِسِه، وتَنْفيرِ الطَّلبة مِنها، لكنّه - رحمه الله - ظلَّ صابِرًا مُحتَسِبًا مُواظِبًا على الدّرس، لا يَنقطِعُ عنه، إلى أنْ قامَ بعضُ الحَنابلة ذاتَ يومٍ - وهو في حَلقةِ الدّرس - بسَبِّه وشَتْمِه، وأَقامُوه بالقُوّة، ومَنعُوه مِن الجُلوس للتَّدريس، وأَلزَمُوه القُعودَ في بيتِه؛ فَنَقلَ الطّبريُّ دروسَه إلى دارِه؛ وكانَ يجتمعُ فيها مع طَلَبة العلم؛ فأغاظَ ذلك الأمرُ الحَنابلةَ بشِدَّة، فدَفَعَهم التَّعصُّب المَذموم لِأبعد دَرَجات الغُلُوّ والظُّلم؛ حيث قاموا بمُحاصَرَة بيتِه، ومَنعِه مِن الخروج مِنه، ومَنعُوا طُلّاب العلم مِن الدّخول عليه.

وعليه؛ فجميعُ طَلَبة العلم والحديث الّذين دخلوا بغدادَ سنة 309هـ لم يتمكّنوا من الاجتماع بالطّبريّ، ولم يَروُوا عنه شيئًا بسببِ هذا الحِصار الّذي كان مفروضًا عليه مِن عَوامّ الحَنابلة وجَهَلَتِهم. ومِن هؤلاء الطّلبَة الإمام أبو أحمد الحسين بن عليّ حُسَيْنَك التّميميّ النَّيسابوريّ، فإنّه حين دخلَ بغدادَ، لم يكتب شيئًا عن الإمام الطّبريّ، وعندما علمَ أستاذُه ابنُ خزيمةَ ذلك قال له: "لَيْتَكَ لم تَكتبْ عن كلِّ مَن كَتبتَ عنهم، وسمعتَ مِن أبي جعفرٍ، وبئسَ ما فعلتِ الحَنابلةُ بحَقِّه".

وظَلَّ الطّبريُّ حَبيسَ بيتِه، يُعاني الاضطهادَ الشّديدَ، فلا يدخلُ عليه أحدٌ إلّا القَليلُ مِن خاصّتِه، وكان قد جاوزَ الخامسة والثّمانين، قد أَنهَكَته السِّنُونُ، ورحلاتُ طلبِ العلم في

شَتّى بقاع الأرض، وزادتِ المِحنَةُ مِن آلامِه وأوجاعِه، والجَهَلَةُ والمُتَعَصِّبُون لا يَرُدُّهم شيءٌ، لا مَكانةٌ عِلميَّةٌ، ولا كِبَرُ سِنٍّ، ولا مُصَنَّفاتٌ عظيمةٌ مُحَرَّرَةٌ في التّفسير والتّاريخ وغيرها ...

وبلغتِ به المِحنَةُ أَوْجَها، ووصَلَ التَّعصُّبُ ذروتَه، وظَلَّ جَهَلَةُ الحَنابلة مُحاصِرينَ بيتَه، ولم يُسمَحْ له بالخروج حتّى بعدما بلَغَهم خبَرُ وفاتِه؛ مِمّا دفَعَ أصحابَ الطّبريّ لأَن يَدفِنُوه في صَحنِ دارِه برَحْبَةِ يَعقوب ببغداد.

لكنّ هذا الحِصارَ المَقيتَ، والتَّعصُّبَ البَغيضَ لم يَمنعِ النّاسَ أن يَأتُوا إلى بيتِه للصّلاة عليه، بل رُوِيَ أنّهم ظَلُّوا عِدَّةَ شُهورٍ يُصَلُّونَ على قبرِه لَيْلًا ونَهارًا.

رحلَ الطّبريُّ عن دنيانا الفانية مُحاصَرًا مَظلُومًا مُضطَهَدًا مِن إخوانٍ له في الدّين!.

لقد راحَ ضَحِيَّة مِحنَةٍ مَقيتَةٍ، غَذّاها الجهلُ، وأَذْكاها وأَجَّجَها التَّعَصُّبِ الأعمى؛ فكانت له تَطْهيرًا وتَمْحيصًا، ولِشانِئِيهِ خِزْيًا وتَبْكِيتًا.

ولئِن كان خُصومُه قد نالُوا مِن دُنياه، فإنّه - ولا شَكَّ - قد نالَ مِن آخِرتِهم؛ فباؤُوا في الأولى بخُمول الذِّكْر، ومَذَمَّة النّاس، وفي الأخرى بالخُسران والنُّكران.

نعم، رحلَ – رحمه الله -، ولكنّ ذِكرَه لم يَرحَلْ، بل رفعَ اللهُ عزّ وجلّ شأنَه بين النّاس، وأقامَ له سوقَ الحَمد والثّناء، وأورثَه في القلوبِ المَحَبَّةَ والإجلال والإِكْبار.